مقدّمة للّسانيات المعرفية

الدكتور حسن كون
مختبر LIRAMEF
المدرسة العليا للتربية والتكوين
جامعة ابن طفيل بالقنيطرة
المغرب

تشكّل اللّغة بالنسبة للعلوم المعرفية، التي تدرس اشتغال الذهن والدماغ، موضوعًا بحثيا ذَا أولوية: فوحده النوع البشري من يمتلك هذه "القدرة العليا" المركبّة على نحو خاصّ. والباحثون في تخصصات كثيرة منخرطون في دراسة المعرفة ومهتمون باللّغة: علماء النفس، والفلاسفة، والأنثربولوجيون، والمتخصّصون في علم الأعصاب أو الذكاء الاصطناعي، وغيرهم، يهتمون، كلّ من موقعه وتخصّصه، بتحديد موقع القدرة اللّغوية في المعرفة الطبيعية، أو الاصطناعية، ودراسة اشتغالها.

المقاربة اللّسانية للّغة، من جهتها، مقاربةٌ أكثر مركزيةً وخصوصيةً مقارنةً بالتخصّصات الأخرى المشار إليها. فهي أكثر مركزيةً لأنّها العلم الوحيد الذي يجعل اللّغة حصريًّا موضوع دراسته؛ وأكثر نوعيةً لأنّها تباشر هذا الموضوع انطلاقًا من دراسة بنية الألسن: فحسب تعريف صار كلاسيكيًّا، اللّسانيات هي "علم اللّغة المعالَج من خلال تنوع الألسن الطبيعية".

اهتمام اللّسانيين بأسئلة ذات طابع معرفي (بالمعنى الواسع) ليس وليد اليوم: أهمّ نظريات اللّسانيات العامّة التي ظهرت قبل أكثر من قرن (انظر: FUCHS & GOFFIC 2003)- دون الحديث عن أعمال النحويين القدماء، بلاغيين ومناطقة- غذّت دون شكّ وبأشكال متعدّدة التفكيرَ في الصلات بين الألسن، والفكر، والتحليل، والفعل، إلخ. ومع ذلك، فهذه الإشكالية العامّة المنتشرة نسبيًّا، المعبِّر عنها، لا تختلط مع ما نسميه "اللّسانيات المعرفيّة".

من اللّسانيات العامّة
إلى اللّسانيات المعرفيّة

حَدّدت اللّسانيات العامّة مهمّتها في دراسة بنية الألسن- انطلاقا من الأصوات ("الدوال" على مستوى العبارة) إلى المعنى ("المدلولات" على مستوى المضمون)- والبحث في الثوابت القائمة بين الألسن.

وفضلًا عن الأوصاف المحلية، الخاصّة بلسان معين، تشكّلت منذ بداية القرن العشرين مجموعة من النظريات اللّسانية العامّة. فبحث بعضها عن تشكيل نماذج للّسان أكثر إجرائية: كما هي الحال، مثلًا، مع الأنحاء الصورية، والنماذج الدلالية الموجَّهة من المعاني إلى الأصوات، كنموذج ميلشوك (Mel'chuk)، ومارتن (Martin)، وبوتي (Pottier)، إلخ. وبعضها الآخر حركّه أساسًا هاجس مقارنة الألسن، سعيًا لرصد خصائصَ مشتركةٍ بينها، فضلًا عن الاختلافات الملاحظة بين لسان وآخر: وهي حال مقاربات الطراز، كمقاربة كومري (Comrie)، ولازار(Lazard)، وسيلر (Seiler)، إلخ.

وجاءت اللّسانيات المعرفيّة لتضيف إلى المطلبين السابقين، المشكِّلين لكل مسار لسانيّ عامّ، مطلبًا ثالثًا، وهو: *الملاءمة المعرفية*. إذ نتّفق على تجميع تحت تسمية "اللّسانيات المعرفيّة" كلّ التيارات التي تتقاسم- وراء اختلافاتها- هدفًا مشتركًا: اقتراح نظريات

لسانيّة ليست فقط عمليةً وعامّةً، بل تُصرّح كذلك باشتغال الذّهن و/أو بالهندسة العصبية للدّماغ من خلال نماذج هندسيّة عامّة. ومن هذا المنظور، فموضوع دراسة اللّسانيّ هو نسق جهاز اللّسان (المستضمر من لدن المتكلّمين) بوصفه مكوّنًا من الذهن، وهو بشكل أو آخر، نسقٌ مبثوثٌ فزيائيًّا في الدّماغ: المقاربة المسماة "طبيعية".

ومع ذلك، فاللّسانيات المعرفيّة لن تذوب في علم النفس وعلوم الأعصاب أو في المعلوميات: فالرهان، بالنسبة لها، هو تأكيدُ خصوصيّة موضوعها (اللّغة عبر الألسن)، والحفاظُ على مفاهيمها وطرائقها، والحرصُ على ألّا تختلط بالتخصّصات المرتبطة بها في إطار براديغمات نظريّة عامّة مشتركة بين التخصّصات المختلفة. فمن داخل نسق الألسن إذًا، وانطلاقًا من دراسة التنظيم البنائيّ والدال لهذا النسق، تقترح اللّسانيات المعرفية فهمَ الروابط بين اللّغة والذّهن والدّماغ.

ومن هذا المنطلق، فاللّسانيات المعرفيّة لا تعيد السؤال الكلاسيكيّ الموزّع للأدوار بين اللّسانيات (التي تدرس نسق القواعد المستضمر من لدن كلّ فرد متكلّم) وتخصّصات أخرى، وتحديدًا علم النفس (الذي يدرس الاشتغال الفعليّ لهذا النظام أو تعطله لدى الأفراد في وضعيات إنتاج ملموسة، وفهم اللّغة أو اكتسابها). ذلك أنّ توزيع المهمّات هذا يعود إلى بداية القرن العشرين، حين أكدّت اللّسانيات نفسَها بوصفها تخصّصًا مستقلًّا عن علم النفس: فاللّساني، بالنسبة لسوسير، يدرس "اللّسان" (أي السّنن بوصفه ظاهرةً اجتماعيّةً)، في استقلال عن الأفراد المتكلّمين وعن ظروف "الكلام" الفرديّ. أما موضوع دراسة اللّساني، حسب المقاربة الشومسكاوية التي عُرفت في اللّسانيات بولادتها عن فرع من علم النفس، فهو "القدرة" بوصفها آلية توليدية مشاركة في العتاد البيولوجيّ للنوع البشريّ). وما يزال موضوع دراسته أقلّ تمييزًا عن موضوع دراسة المتخصّص في علم النفس (ال "إنجاز"). فانطلاقا من هذا النوع من الفروق، تطورت تخصّصات فرعية تشتغل في الواجهة مع اللّسانيات، مثل علم النفس اللّسانيّ (فرع من علم النفس المعرفيّ) أو علم الأعصاب اللّساني (فرع من العلوم العصبية المعرفيّة)- التي تحاول حاليًّا الالتحاق بعلم الأعصاب النفسيّ اللّسانيّ).

الإشكالات الكبرى في اللّسانيات المعرفيّة

يعني اعتماد منظور معرفيّ في اللّسانيات التساؤلَ عن مجموع المعارف النوعيّة التي يتحكّم فيها الذّهن البشريّ عبر ملكة اللّغة المشكَّلة بدورها انطلاقًا من أنظمة الألسن، والتساؤل عن كيفية تنظيم هذه المعارف حتى تُكتسب في النشاط اللّغوي وتُشغَّل فيه. ومن هنا، تنبع سلسة من الأسئلة، تُقدّم لها عناصر إجابة مختلفة تبعًا لنمط البراديغم الابستيمولوجي المتبنى.

أسئلة أولى تهمّ الهندسة البنيويّة للمعارف اللّغوية المشكِّلة للقدرة اللّغوية: كم عدد أنماط المعارف ومستوياتها المختلفة (صوتية، وصرفية، وتركيبية، ودلالية،...) الموجودة في ذهن الأفراد المتكلّمين؟ وهل التداولية (حساب الإحالة، والمعنى غير الحرفيّ، وأخذ النصّ اللّغويّ الموازي بعين الاعتبار في حساب المعنى،...) جزءٌ منها؟ هل يشكّل التركيب "نواة صلبة"؟ وهل يمكن لهذه المعارف كلّها أن تشكّل وحدها القدرة اللّغوية؟...

صنفٌ ثانٍ من الأسئلة ذو طابع هندسيّ وظيفيّ للمعارف في الذهن والدماغ البشريين: ما شكل تنظيمها؟ إذا تعلق الأمر بقوالب (أي أنظمة فرعية محدّدة وظيفيا ومعلوماتيًّا)، فهل هي كبسولات (أي مستقلّة كليًّا) أم أنّها مترابطة وتعتمد على بعضها البعض؟ وهل تُشكِّل اللّغة قالبًا ثانويًّا متصلًا بها عبر مداخل ومخارج بسيطة للمعلومات (كقوالب الإدراك أو الفعل الحركيّ)، مستقلةً عن النظام "المركزي" (الذي سيشكّل نطاق التفكير)؟ ومن ناحية أخرى، ما أنماط الحسابات التي يكون فيها التحكّم الفعلي في هذه المعارف ملائمًا، وكيف يمكن لهذه المعارف المختلفة أن تُمثَّل أو تُحاكى اصطناعيًّا؟...

صنفٌ ثالثٌ من الأسئلة يلامس ما يمكن تسميته ب "دينامية اللّغة" التي تثير البعد اللّغويّ المتغير. ووراء تنوّع الألسن، هل يمكن أن نسلّم بوجود كليات أو ثوابت بين الألسن؟ وفضلًا عن ذلك، ما هامش المتغيرات بين الألسن وهل لها تأثير معرفيّ؟ إذا تعلق الأمر بتطور الأنظمة اللّسانية عبر الزمن، فما الموقع الذي تحتله الدياكرونية في المنظور المعرفيّ؟ ما الذي يمكن قوله عن ظهور القدرة اللّغوية أثناء التطور؟ وأخيرًا، على المستوى الجيني، هل تفسّر سرعة تعلّم اللّغة (من لدن الطفل) ونسبيته بالتكرار البسيط والمحاكاة، أم بتأثير المعارف اللّسانية التي تشكل العتاد البيولوجيّ للنوع، أم بأسباب أخرى؟ وفي المقابل، كيف يمكن أن تتراجع المعارف بالحوادث أو الشيخوخة؟

صنف رابعٌ من الأسئلة مرتبطٌ بالصلات بين اللّغة وقدرات إنسانية أخرى، وبخصائص اشتغال الذّهن رمزيًّا (الفكر، والاستدلال، والذاكرة، إلخ): هل اللّغة شرطٌ ضروريّ للتفكير؟ وهل سيرورات معالجة اللّغة مختلفة جذريًّا عن تلك السيرورات المعتمدة في أنشطة معرفية أخرى وفي الإدراك (البصر، والسمع،...)؟ وما العلاقات الممكنة، مثلًا، بين فهم اللّغة الشفهية وإدراك الموسيقى؟ هل تتداخل العواطف مع القدرة اللغوية؟...

هذه الأسئلة الكبرى، كما نرى، تُحدّد الكيفيّة التي تنخرط بها اللّسانيات مع تخصّصات العلوم المعرفيّة (علم النفس، والفلسفة، وعلم الأعصاب، والذكاء الاصطناعي،...) في الاشتغال على اللّغة، وطبيعة البراديغم الابستيمولوجيّ الذي تتقاسمه معها.

إن وجود اللّسانيات في حضن برنامج متعدّدة التخصّصات هو ما طبع البدايات الرسمية للّسانيات المعرفية. وقد صار كلاسيكيًّا (Rastier, 1998)أنّ هذا "المنعطف المعرفيّ" حدث في منتصف الخمسينيات بالولايات المتحدة الأمريكية. ولا ننسى أنّ في أوربا، في الفترة نفسها تقريبًا، وبكيفية مستقلّة كليًّا عن هذه الحركة "المعرفيّة"، أدّى اللّسانيون دورًا رياديًّا، بمساهمة متعدّدة التخصّصات، جدّدَ المقاربة النظرية للّغة والألسن، بفتحها على إشكالات ذات طابع معرفيّ، كما فعل ذلك ياكبسن (Jakobson)، مثلًا؛ ونومِئ، أيضا، إلى كيليولي (Culioli) المشتغل خلال سنوات عديدة مع عالم النفس بريسون (Bresson) (أحد المحسوبين على نظرية بياجي) والمنطقيّ غريز (Grize)، ومع متخصّصين في أمراض اللّغة (Laplanche, Bourguignon)، في مجال الحبسة وانفصام الشخصية: عمل متعدّدة التخصّصات، أصيل وعميق، ألهَم بلا شكّ بناء "نظريّة العمليات التلفظيّة" (انظر المقالات المجمَّعة لاحقًا في (Culioli 1990و1999)، وكان عملًا رائدًا لكثير من المقاربات التي جاءت بعده في الدلالة والتداوليات اللّسانية.

المنعطف المعرفيّ في اللّسانيات

نعود الآن إلى ما سميناه "منعطفًا معرفيًّا" في اللّسانيات. ففي عام 1956 بالولايات المتحدة الأمريكية، التأم ممثلو العديد من التخصّصات العلمية المختلفة (في ندوتين، واحدة في كامبريدج، والأخرى في دارتموت) حول مشروع ابستيمولوجي مشترك، عُرف باسم "برنامج معرفيّ": حيث سعى اللّساني نعام شومسكي (Noam Chomsky)، الذي جاور عالم النفس هربرت سيمون (Herbert Simon) والمتخصّص في الذكاء الاصطناعي مارين منسكي (Marin Minsky) في هذا المشروع متعدّد التخصّصات، الهادف إلى تحديد خصائص اشتغال الذهن عبر قدراته التي يطورها، وكذلك من خلال القدرة اللّغوية. وكانت الفرضية العامة المؤسسة لهذا المشروع هي: يمكن أن تُحدَّد المعرفة الإنسانية، على طريقة الآلة، بحسابات (حوسبة) تمثل معالجة الإنسان لمختلف أنماط المعلومات التي يستقبلها.

ووجدت اللّسانيات نفسَها في هذه اللّحظة- عبر وساطة أنصار مقاربة صورية للّغة- جزءًا مُقحمًا في المشروع "المعرفيّ" منذ بداياته، مشارِكةً في ما اعتبره بعضهم "ثورة العلوم المعرفيّة" (حسب عبارة غاردنر Gardner 1985).

ومن المناسب التذكير أنّ مرحلة 1956، المعروفة بولادة اللّسانيات المعرفيّة، كانت مسبوقةً منذ انعطاف سنوات الأربعينات، بمرحلة السبرنيطيقا، ومؤسسيها الذين حملوا أسماء فون نومان (Von Neumann)، ووينر (Wiener) ، وتيرين (Turing) . واستهدفت السبرنيطيقا توطين "علم ذهن" جديد بالاستناد إلى المنطق الرياضي (لوصف اشتغال التحليل)، وعلى نظرية الأنساق (صياغة مبادئ عامة تحكم كلّ نسق مركب) ونظرية المعلومات (بوصفها نظرية في إحصاء إشارة قنوات التواصل): أُنظر بخصوص هذه النقطة الأعمال التمهيدية لفاريلا (Varela, 1988) وديبي (Dupuy, 1994). إن فكرة اشتغال الفكر حسابيًّا، كما هي حال الآلة، ودماغًا تُشكّل مكوناته مبادئ منطقيّة، من المقاربة السبرنيطيقية: من هنا جاء تدخل الحاسوب، تبعًا لمبادئ فون نومان. وهذا التقليد هو الذي تعود إليه بدايات اللّسانيات المسماة "حاسوبية"، أي التيار الذي يُعنى بدراسة اللّغات الصورية لإنجاز معالجات آلية للغات؛ إذا كنا نثير عادة نحو شومسكي التوليدي (وتحديدًا مقاله لعام 1956 حول القرابة بين نظرية الأنحاء ونظرية الآلة)، فينبغي ألّا ننسى أنّ هاريس (Harris) (الذي كان شومسكي تلميذه) هو صاحب مفهوم "البنيات الرياضية للّغة" (المنشورة مجددًا في مؤلفه عام 1968). وهذه الملاحظة ليست من باب الطرافة كما يمكن أن يظهر عليها من الوهلة الأولى: فمسارات البحث ومنافع النحو الشمسكاوي، من جهة، والمتخصّصون في المعالجة الآلية للّغة، من جهة أخرى، تقاطعوا جزئيًّا على مرّ السنوات (اختلط الطرفان تحت التسمية الملتبسة "اللّسانيات الحاسوبية")، وهو ما يُفسَّر في بعض الأحيان بجذورهما التاريخية المختلفة.

اتصلت المقاربة السبرنيطيقية ب"المعرفيّة"، إذًا، في سنوات الخمسينات. وإذا استعادت الأخيرة فكرةَ الحساب، فإنّ طبيعة هذا الأخير قد تغيرت: يتعلّق الأمر من الآن بحساب التمثيلات الرمزية؛ التي تحمل اسم "الحوسبة التمثيلية الرمزية"، الذي أُعطي للبراديغم الابستيمولوجي المؤسّس للتيار المعرفيّ الكلاسيكيّ. فالحسابات فيه تُحَدَّد بالعمليات على الرموز، أي على العناصر المشكِّلة للتمثيلات. إذ تعتبر الرموز ذات طبيعة مادية (مبثوثة في الدماغ) ودلالية (تمثل العالم الموضوعي) في الآن نفسه. ومن هذا المنظور، فالمعرفية تُحدَّد بوصفها معالجةً للمعلومات الموظّفة (على المستوى الرمزي) لتشغيل قواعد تطويع الرموز باعتبارها عناصرَ ماديّة (على المستوى العصبي البيولوجي) وتمثيل العالم الواقعي (على المستوى الدلالي). ونلاحظ أنّ معرفية سنوات الخمسينات تتأسّس بشكل واسع على استعارة "الذهن- الآلة" (التي يشترك فيها علم النفس المعرفي، والفلسفة المعرفية، والذكاء الاصطناعي)، ومع ذلك فمحاكاة الدماغ-حاضرة بشكل متقطع منذ ماكميلوش (McMulloch) وبيت (Pitts)، ثم من خلال بعض الممثلين كأشي (Ashby) أو أربيب (Arbib)- لم تُستثمر بشكل واسع إلا في نهاية الثمانينات، في إطار التقارب مع علوم الأعصاب المعرفية. فهذه الأخيرة شهدت من جهتها انعطافًا معرفيًّا أواخر الخمسينات: نَظّم شميت (F.O. Schmitt) خلال عُشرية لقاءات متعدّدة التخصّصات، جمعت متخصّصين في علوم الأعصاب دوليين معروفين، كانت مصدر "برنامج البحث في علوم الأعصاب"؛ وعقد في باريس عام 1960 أوّل لقاء ل"التنظيم الدولي للبحث في الدماغ": ارتبط تطور علوم الأعصاب المعرفية بتطور معرفة الشبكات العصبية.

براديغم التمثيل الحاسوبي الرمزي هو براديغم نظري يرتبط به النحو التوليدي(Chomsky, 1965, 1981, 1995) في اللّسانيات، وبعده عدد من النماذج الصورية في النحو ("أنحاء التوحيد": انظر Abeillé 1993) التي منحت كلّها لمفهوم "النسق الصوري" مكانةً مركزيّة. ويمكن إجمالا تلخيص خصائص هذه المقاربة في سمات كبرى كالآتي. المنهجية المتبعة قائمة على الفرضية والاستنباط، والأمثلة المدروسة صاغها اللّساني بكفاءته اللّسانية، باعتباره متكلمًا. والمقاربة "قالبية" (Fodor, 1989): جعل

فرضية قالب "اللّسان" نوعيةً في علاقة بالقوالب المعرفيّة الأخرى، ومنح التركيب موقعًا مركزيًّا، بوصفه ضامنًا للمساحة بين التمثيل الدلاليّ المنطقيّ (وشروط الصدق) والتمثيل الصوتيّ. وتصور اللّغة تمثيليّ: اللّغة أداة للتعبير عن الفكر، وتتيح نقل المعلومات عن العالم. وأخيرًا، النمذجة قائمة بطريقة كلاسيكية على حسابات ذات طبيعة منطقية جَبرية. فهذه المقاربة اللّسانية تنتمي إلى إطار عام لتطور العلوم المعرفية وعلوم الأعصاب (في ارتباط ببيولوجيا الذرة والوراثة)؛ و"النحو الكلي" المقترح من لدن شومسكي شكّل صدى، في مادّة اللّغة، لفكرة وجود شِفرة وراثية منقولة من جيل إلى آخر: إنّها "غريزة اللّغة" (حسب عبارة Pinker 1994).

أعلام المعرفية:

التيارات الجديدة في اللّسانيات المعرفيّة

منذ بروز هذا التيار الأوّل في منتصف الخمسينات، تنوعت اللّسانيات المعرفية تدريجيا على مدى السنوات، على غرار تخصّصات أخرى منخرطة في دراسة المعرفة. ونعرف أنّ هناك جانبًا من الانتقادات، في مختلف مجالات العلوم المعرفية، موجهة لصرامة البراديغم "المعرفي" الصادرة وقتها (في علوم الأعصاب، وعلم النفس، والمعلوميات، والفلسفة، وعلم السلوك...): أُنظر بخصوص هذه النقطة Varela (1988). ولسؤال المعنى في هذا النقاش المفتوح أهمية مركزية. فبعض المقاربات (من البراديغم المعرفي) ترفض المعالجة المقطعية والمحلية للمعلومة، لصالح المعالجات المتوازية والموزعة. ومن هذا المنطق، اقتُرحت بدائل متنوعة للتوجيه الرمزي لشبكات تغطي الارتباطات الداخلية، وموجهات "المكونات البارزة" الشاملة والمحدَّدة من خلال القدرة المعرفية (على غرار أنساق "التنظيم الذاتي" في السبرنيطيقا): في هذا المنظور المسمى "فوق رمزي"، لا يسكن المعنى في الرموز، بل في خطاطات النشاط المركب الذي يبرز تفاعلًا بين رموز عديدة. وانتقادات أخرى، أكثر جذرية، هي تلك المرتبطة بمفهوم "التمثيل" نفسه: في التصور الذي يعتبر "بنائيًّا" (أو نَشِطًا)، ينظر للمعرفة بوصفها نشاطًا لإظهار الدلالات ديناميا، وليس لمعالجة معلومات موجودة مُسبقًا أو للتفكير فيها.

وظهرت على صدى هذه التطورات تياراتٌ جديدة في حضن اللّسانيات المعرفية تدافع- بقوة تتفاوت حسب الحالات- عن البراديغم المعرفي الأولي: يتعلّق الأمر أساسًا بتيار "الأنحاء المعرفية" الذي ولد في الساحل الغربي للولايات المتحدة الأمريكية (Lakoff, 1980 ; Langacker, 1987, 1991, 2000 ;Talmy, 200)، وكذلك تيار "الوظيفيين الجدد" (الذي يمثله أساسًا Givon 1989,1995؛ وهين Heine 1997). ومهما تكن التباينات الداخلية بين هذه التيارات، فهي تختلف عن المقاربة الشومسكاوية بالخصائص الآتية. المنهجية المعتمدة أكثر استقرائيةً، والوصول إلى المتون النصية لم يُستبعد. فالمقاربة "تفاعلية": تحتلّ الدلالة فيها موقعًا مركزيًّا، حيث تُعْلِم التركيب والمعجم اللّذين تفاعل معهما؛ فرضيةُ خصوصيّة قالب "اللّسان" مُدحضة، وفرضية وجود ميكانيزمات معرفية عامّة (تشترك في اللّغة، والإدراك، والفعل) مسلّم بها. فهذا التصوّر يعتبر اللّغة "ناشئة"، فضلًا عن قابليتها للتمثيل: ينظر إلى اللّغة بوصفها أداةً للمَفْهَمة النشِطة للعالم و/أو أداةً للتواصل. وأخيرًا، أنماط النمْذَجة المقترحة تستند إلى الهندسة والأنظمة الدينامية، وإلى الارتباطية، بدلًا من استنادها إلى الجبر والمنطق الرياضيّ. سنفهم أنّ "النواة الصلبة" لهذه التيارات اللّسانية المعرفيّة الجديدة، المهتمة أساسًا بالمظهر الديناميّ للألسن واللّغة، تتواجد بشكل أقل في قواعد النحو، مقارنةً بتواجدها في عمليات بناء الدلالة: من هنا تتأتى الأهمية الممنوحة لظواهر مثل التعدد الدلالي أو الاستعارة.

نسجل كذلك أنّ هذه التيارات تُنشِئ صلات موسعة مع مقاربات دياكرونية للألسن (Sweetser, 1999 ; Croft, 2000)، ومع مقاربات النموذج (انظر Croft, 1999) في البحث عن "الثوابت بين الألسن" ; (Lazard, 1994,2004 Seiler, 2000). ومن المهم، أيضًا، أن نسجّل في هذا الصدد أنّه إذا كانت المعرفية اللّسانية قد جددت الاتصال بكيفية ما مع المقاربة الطبيعية والعضوية للّغة، الممثلة بشليشر (Schleicher) وهوفلاك (Hovelacque) في القرن التاسع عشر، فإن

التيارات الجديدة في اللّسانيات المعرفية حاولت أن تُحيّن من جهتها سؤال "النسبية اللّسانية". وهو السؤال الذي طُرِح، كما نعرف، في النصف الأوّل من القرن العشرين من لدن سابير (Sapir, 1949) ثم وورف (Whorf, 1956)، انطلاقًا من فكرة التيار الروحاني في القرن الماضي (Humboldt ; Steinthal ; Paul)، الذي كان وراء ولادة علم النفس العِرقي (أو "علم النفس الخاص بالشعوب"). وقد اختفى هذا السؤال لعقود كثيرة من المعرفية، ثم عاد ليطرح بطعم اليوم من منطلقات نظرية وتجريبية مُجدَّدة، في علم النفس اللّساني المعرفي (Slobin, 1996) وفي علم الأعصاب النفسي اللساني (Nespoulous, 1999)؛ يتعلق الأمر في الفترة الحالية برهان كبير أمام مقاربة ثوابت الألسن ومتغيراتها معرفيًّا: أُنظر بخصوص هذه النقطة، Fuchs 1999, 2003; pûtz & Verspoor, 2000 ; Hickman, 2002 . فسؤال الصلات بين نشاط اللّغة ونشاط التفكير تجدّد في النقاشات الحالية بعد أن ظلّ مغيبًا لمدة طويلة من لدن المعرفيين Carruthers & boucher, 1998) : أُنظر أدناه).

الرهانات والمنظورات

تتيح العودة المختصرة المقترحة فهمَ أصول مختلف المقاربات التي تعتبر نفسَها، في الفترة الراهنة، من اللّسانيات المعرفية. ولتقديم هذه المقاربات، سيكون من المغري مقابلتها على المستوى النظري والابستيمولوجي؛ التي تساهم ببراديغم التمثيل الحوسبي الرمزي من جهة، وتلك المنفصلة عنه من ناحية أخرى: المقاربات الأولى تتعلق بالأنحاء الصورية. أما المقاربات الثانية، فتنتمي إلى الحركية الواسعة المشكلة حول الأنحاء المعرفية وأنحاء الوظيفيين الجدد.

يكشف ذلك عنوانا كتابين: اللّغة والمعرفة: مقدّمة للبرنامج الأدنوي للنحو التوليدي(Pollock, 1997): الموضح للمقاربة الشومسكاوية)، ومقدّمة للّسانيات المعرفية (ungerer & schmid, 1996: المجسد لمقاربة الأنحاء المعرفية). لكن، حين ننظر عن قرب، نظن أنّ الوضعية الحالية أكثر تغيرًا وتطورًا، وهو ما يحول دون التمثيل الخطاطي. والواقع، أنّ بعض التطورات الحديثة أدت إلى تليين الباراديغم الكلاسيكي، كما تشهد على ذلك نسبية تنوع وجهات النظر (المنبثقة كلّها عن البراديغم الأصلي) المعروضة في (Dupoux, 2002). نمطان من العوامل قادَا إلى هذا التطور: عوامل داخلية متصلة بدينامية النظرية داخل التخصّص، وعوامل خارجية مرتبطة بتطور علوم المعرفة الأخرى والحوار بين التخصّصات.

معظم المقترحات المجدِّدة المقدَّمة حديثًا، داخل اللّسانيات، منشغلة بسؤال هندسة المعارف اللّسانية والقولبة. فمنذ عدة سنوات، دافع مختلف اللسانيين، فضلا عن المدافعين عن لسانيات معرفية قَالَبية، عن طريقة لتنظيم قوالب اللغة تكون مختلفة عن نحو شومسكي، منتقدين الموقع المركزي الممنوح لقالب التركيب ضمن هندسة متسلسلة. وجعل كيفر(Kiefer, 1995)، الذي دافع عن "لسانيات معرفية قالبية موسعة"، البنيةَ التصورية في الواجهة كما يجب، ليس فقط مع القالب الدلالي، بل بالموازاة مع القوالب الثلاثة المشكِّلة للنحو (وهي التركيب، والصرف، والدلالة). ومن جهته، اقترح جاكندوف (Jackendoff, 2002)، متموقعًا بشكل صريح مع المنظور المعرفي الحوْسبيّ، نموذجًا مُؤَسَّسًا على هندسة ثلاثية موازية، التركيب (بأساس معجمي) مختزلًا وقالبان صوتي ودلالي أكثر أهميةً.

ويذكّر هذا التطور الذي عرفه جزء من اللّسانيات المعرفية في اتجاه الحسابات الموازية والموزعة بالتطور المشابه في هذا الباب الذي عرفته معالجة اللّغة آليًّا في الذكاء الاصطناعي؛ والذي ليس له صدى في جهة علوم الأعصاب (حيث بيّنت دراساتُ نشاطِ شبكات القشرة الدماغية أنّ الأخيرة تُشكِّل مجموعات تشتغل بكيفية موزعة كليًّا)، ولا صدى له أيضًا في جهة علم النفس(Fodor نفسُه، المدافع دون شرطٍ مسبقٍ عن قوْلبة عامة في سنوات الثمانينات، لم يأخذ موقعًا قطعيًّا تجاه استقلالية مختلف القوالب: أُنظر Fodor 2000). وليبرز المتشبثون بمقاربة "تفاعلية" الموقف الذي يمنح الأولوية للدلالة، تزايد إصرارهم على تحديد خصائص أنماط إنشاء،

على مستوى الأشكال، خطاطات دلالية تصوُّرية. والنماذج التي يقترحون، كي تُحدّد الدلالةُ تأويل التركيب والمعجم، والتي تلجأ إلى تنقيطات رمزية انطلاقًا من عددٍ معين من النقط، تلتحقُ بالنماذج المثارة أعلاه (انظر مثلا "أنحاء البناء": Fillmore & Kay, 1993 ; Goldberg, 1995,2003). ونلاحظ أنّ المسافة بين البراديغمين الأصليين في حضن اللّسانيات المعرفية تؤول نحو التقلّص، كما يُسجل ذلك لونغكر (Langacker, 1999)، وأنّ التعارض بين الصّوْرنة والوظيفية ذاهبٌ إلى التلاشي.

ومن ناحية أخرى، ساهم التطور الحديث الذي تشهده علوم المعرفة الأخرى بدوره، من الخارج، في التقريب بين المواقف: أُنظر مثلا في Dupoux (2000) نتيجة تطور العلوم المعرفية "الكلاسيكية" (الخضوع المعرفي التام) نحو علوم معرفية مصنفةٍ على أنها " غير كلاسيكية" من لدن piattelli-palmarini. مؤكد أنّ الحوار بين التخصّصات لم يقم على الأسس نفسها، يتعلق الأمر بلسانيي البراديغم الكلاسيكي (المدافعين عن المقاربة المسماة "داخلية" للّغة) أو لسانيي البراديغم البارز (المنتبهين للتشابهات بين المعرفة اللّسانية والمعرفة غير اللّسانية). وكلّ طرف منح الامتياز لعلمائه المتخصّصين في علم النفس وعلم النفس اللّغوي، ولعلمائه في علم الأعصاب وعلم الأعصاب اللّغوي، ولمعلوماته: يمكن القول هنا، أيضا، إننا استطعنا إيجاد المتشبثين بالقالبية، وتحديد الموقع العصبي للرمزي والتقاطعات والخوارزميات، من جهة؛ ومن جهة أخرى، المتشبثين بالتفاعلية، والشبكات الموزعة، وما فوق الرمزي، والمتَّصَل والارتباطية.

لكن هنا، أيضًا، ستكون كلّ معارضة مجابهةٍ اختزاليةً: كلّ حالات التمثيل الوسيطة تلتقي على المستوى النظري، ونتائج الأعمال التجريبية قادت إلى تليين الموقفين معًا. وفي هذا الصدد، نشدّد كثيرًا على الدور الأساس لتجريب واختبار براديغمات مختلف نظريات اللّسانيات المعرفية: سواء تعلّق الأمر بتجارب ممارسةٍ في علم الأعصاب اللّساني (حيث يمكننا من الآن الاستناد إلى أداة فعالة مشكّلة لمختلف تقنيات التصوير العصبي)، أو بتجارب منجزة في الذكاء الاصطناعي (حيث يوجد، إلى جانب إنجاز أنظمة مطبَّقة، نشاط لنمْذجة نتائج المماثلة، والتجريب، والتعلّم الآلي). وفي هذا الاتجاه، فموقف النحو الشومسكاوي لا يترك ليكون إلى حدّ ما مفارقة: اللّسانيات ستكون فرعًا من علم النفس، لكن الثانيّ لن يؤدي دورًا في التصديق على الأبنية النظرية الخاصة بالأولى! ومهما كان، فينبغي أن نعرف أنّ اللّسانيين إلى الآن لا يشتغلون فعليًّا مع علم النفس، وأنهم يتعاونون معه بشكل أقلّ- وبشكل أقل، أيضًا، مع علماء الأعصاب: كم عدد اللّسانين المنخرطين في علم الأعصاب؟ وكم عدد اللّسانيين الباحثين عن بناء نظرية "عصبية ملائمة" (مثل Lamb,1999)؟ المكتسبات الحديثة في هذه التخصّصات حول اشتغال اللّغة لا يمكن إلّا أن يكون لها تأثير على تطور المقاربات النظرية في اللّسانيات المعرفية: لنأخذ مثالًا واحدًا، حقيقة أنّ منطقة دماغ القرد مماثلة لمنطقة بروكا(Broca) (المعنية باستعمال الإنسان للّغة) والمنطقة F5، التي اكتشفت فيها "عصبونات المرآة" الشهيرة (الأساسية في المحاكاة والتواصل)، وأنّ منطقة بروكا تسجّل أيضًا حركات الأشخاص الذين يتواصل معهم الفرد (Rizzolati & Al. 2002).

إنه توضيحٌ مقنعٌ للطريقة التي يستطيع بها الحوار بين التخصصات تذليل الهوة بين البرديغمات الكبرى المثارة آنفًا، والموجودة في (Carruthers & Boucher, 1998) حول سؤال الروابط بين اللّغة والفكر. في الفصل المقدِّم لهذا العمل، بيّن المؤلفون كيف لأطروحتين متعارضتين في البداية، من الفلسفة وعلم النفس واللّسانيات، تحقيق تقارب في الأعمال الحديثة. الأولى (نمطية بخيار فطري وقالبي من البرديغم التقليدي)، تجعل التفكير مستقلًا عن وسيلة التحويل- وبالتالي عن اللّغة-، والتي زعزعتها إلى حد ما المقاربات الارتباطية والمعالجات الموازية الموزعة. والثانية (نمطية بخيار "ارتباطية" البراديغم المستجد)، تريد أن تجعل اللّغة شرطًا ضروريًّا لممارسة التفكير، كانت بدورها موضوعًا للسؤال. وإجمالًا، فإن موقفًا وسطًا أضعف الأطروحتين الأوليتين، وقاد إلى تجاوز التعارض بينهما: التفكير سيكون بالتأكيد ممكنًا دون اللّغة، لكنّها أساسية في التفكير، وبهذا المعنى توجد صيغة إنسانية خاصة للتفكير مشكَّلة باللّغة ("التفكير للكلام" حسب سلوبن Slobin 1996، المثبت بتجاربه). ومن هنا أعيد تأهيل السؤال في الأبحاث الحديثة في

اللّسانيات المعرفية، وفي التخصّصات ذات الصلة، وهو سؤال فلسفي قديم تلقى إجابة منفصلة شبيهة في إطار النظرية اللسانية قبل المعرفية، في النظرية "النفسية الميكانيكية" لغيوم guillaume (أُنظر عمله الصادر عام 1964، بعد وفاته): الفكر مستقلًا عن اللّغة، سيكون متحكمًا فيه عبر اللّسان، وسيكشف خطاطاته المعرفية (انظر valette 2003). وتحت صيغة مختلفة، سنجد على النقيض بعض علماء الأعصاب ساندوا، منذ مدة طويلة، المتشبثين ب"المحلية" الصارمة: وهي فكرة أن مجموع الدماغ يفكر ويعقلن، وأنّ اللّغة أداة تتيح للتفكير أن يفكر بنفسه (أُنظر Lecours & Al. 1987).

النقطة التي وصلنا إليها اليوم، هي أنّ على اللّسانيات المعرفية رفع تحديين: تطوير نماذج قادرة على مجاراة الممارسة التجريبية في التخصّصات المرتبطة بالعلوم المعرفية، وتأكيد ملمحها النظري في حضن اللّسانيات. وإذا كان واضحًا أنّ اللّسانيات المعرفية لم تربح شيئًا من التشنجات حول المواقف الدوغمائية ومن المواجهات(التي لا تكون عملية عادةً، بل إيديولوجية) بين البراديغمين المثارين أعلاه، ففي المقابل ليس هناك بالتأكيد ما تربحه سوى "أثر موضة" متراخٍ يقود إلى اعتبار المقاربة المعرفية للّغة "دراسة للكيفية التي نجرب بها تبادلات الأفكار والتفكير" (حسب كلمات Dirven & Verspoor 1998) ، أي في النهاية كل مشروع ينطلق من الفكرة أو المفهوم لدراسة تعبيراته اللّغوية الممكنة!

ومن جهة أخرى، فالتفكير المنفتح في الآن نفسه على مكتسبات النظريات الكبرى في اللّسانيات العامة مُدمَجة في نموذج معرفي، وعلى منجزات اللّسانيات المعرفية في أسئلة اللّسانيات العامة، لا يمكن إلا أن يستفيد من التخصّص.

عرضُ المؤلَّف

إنّ المشاركات المجمّعة هنا تصدر عن لسانيين من اللّسانيات المعرفية، وعن متخصّصين من مجالات أخرى للعلوم المعرفية متفاعلة مع اللّسانيات، يطالبون (بأشكال مختلفة) بلسانيات معرفية. الجزء الأول من هذا المؤلف يقدّم التيارات المنضوية حاليا تحت لواء اللّسانيات المعرفية، منظور إليها داخل التخصّص.

تقدّم مساهمة ألان روفيرت (Alain Rouveret) التطور الحديث لنظرية شومسكي (المقاربة المسماة "مبادئ وبرامترات" من سنوات الثمانيات إلى "البرنامج الأدنوي"). وفي هذا الإطار النظري، يتميز اللّسان بالحسابات (التركيبية) للتمثيلات الذهنية، وهذه المعارف المخزّنة في الذهن الخاصة بكل متكلّم مرشحة للمشاركة في العتاد البيولوجي للنوع البشري. ومفهوم "النحو الكلي" الذي عرضه شومسكي يقترح نفسَه لتفسير سرعة تعلّم اللّغة موحدة من لدن الطفل، مهما كان اللّسان، بوجود خصائص مشتركة بين الألسن ("مبادئ" كلية فطرية): يبقى فقط أن يتعلّم الطفل، تبعًا للّسان، من خلال انتقاء قيم "المعايير" المختلفة والمرتبطة بالمبادئ. ويستهدف "البرنامج الأدنوي" تنقية قصوى للنموذج وأخذ الطابع "الأقصى" لتنظيم اللّغة بعين الاعتبار– وتحديدًا مبادئ الاقتصاد التي تقيد حساب التركيب، سعيًا لتجميع الوحدات المعجمية، تمثيل صوتي (تُفكّ شفرته بالنظام السمعي– النطقي) من جهة، وتمثيل دلالي (يؤوله النسق التصوّري) من جهة أخرى. فالنظرية الشومسكاوية، كما يشير إلى ذلك ألان روفيري في نهاية مقاله، مدعوة إلى الإجابة عن أسئلة كثيرة بأهمية لسانية معرفية، وتحديدًا ما تعلق ب "أدنوية" مجموع الجهاز النحوي (ليس فقط نواة التركيب، بل أيضًا الصرف والصواتة والدلالة)، والوجاه بين هذا الجهاز والنسقين السمعي والنطقي من ناحية، والتصوري من ناحية أخرى.

وتقدّم مساهمة برنار فكتوري (Bernard Vectorri) تيار "الأنحاء المعرفية الذي نشأ في الساحل الغربي للولايات المتحدة الأمريكية بدءًا من الثمانينات، والذي يعود تاريخيًّا إلى تيار منشق عن التيار الشومسكاوي (يسمى"الدلالة التوليدية" لتمييزه عن

"الدلالة التأويلية" لشومسكي). ويعدّ لنغكر (Langacker) وليكوف (Lakoff) وتالمي (Talmy) وفوكوني (Fauconnier) أكثر الممثلين لهذا التيار شهرة، المنطلق من مسلمتين رئيسيتين، وهما: وجود ميكانيزمات معرفية عامة تحكم نشاط اللّغة (كما هو الأمر في الإدراك البصري أو التجربة الحس-حركية)، والطابع المركزي للدلالة (التي ينظر إليها باعتبارها نشاطًا لتشكيل بنيات رمزية مركبة انطلاقًا من وحدات معجمية ونحوية). وتروم أبحاث الدلالة النحوية (Talmy) في حضن هذا التيار إنشاء إعدادات معرفية (صور ذهنية، على شكل إخراج سينمائي) مشكَّلة بالملفوظات؛ وهذه الإعدادات تمثَّل بمساعدة تخطيطات تُنسِّق العلاقات الطوبولوجية والسينمائية بين العناصر، وتستدعي مختلف المفاهيم المؤولة مباشرة بمصطلحات نفسية (كالتعارض مثلا بين "الوجاه" و"الخلفية"، الذي أعادته النظرية الجشطلتية، بخصوص "التنميط"). وبناء معنى ملفوظ يوصف بكلمات تُوحِّد تمثيلات نسقية مرتبطة بمختلف العناصر في منظور تركيبي جزئيًّا. وعلى المستوى المعجمي، تعدّ نظرية "الطراز" التي أثارتها روش (Rosch) واحدةً من أكبر مصادر الإلهام المغذية بشكل خاص للعديد من الأبحاث في تعدّد معاني الوحدات المعجمية، والتي منحت مكانًا لتمثيلات المعنى الهندسية؛ ومن جهة أخرى، منحت أهمية كبرى لظاهرة "الاستعارة" (Lakoff)، التي اعتُبرت ميكانيزمًا عامًّا للتفكير، حاضرًا بشكل واسع في الألسن، ويتيح استيعاب مفاهيم مجردة عبر التجربة الحسية. وأخيرا، على مستوى الخطاب، تقترح نظرية "الفضاءات الذهنية" (Fauconnier) نفسها لتقديم نموذج متدرج، تماشيا مع النصّ، لإعدادات معرفية مبْنية (انطلاقًا من "تعليمات" صادرة عن صيغ لسانية) ومترابطة بينها: العديد من الظواهر الدلالية والتداولية (الأنساق الجهية والزمنية، والجناس، والاستعارات، والتمثيل المقلوب...) مثارة أيضًا بعلاقات بين الفضاءات المبنية.

مساهمة جاك فرونسوا (Jacques François) مخصّصة "للوظيفية الجديدة"، اللّسانيين الذين برزوا منذ الثمانينات، وخصوصًا لتطورِ نحوِ الألسن وأنماطها. فقد حاول هذا التيار (الذي يمثله Givon) بدوره التميّز عن الأنحاء الصورية؛ حيث يركز على وظيفة اللّغة التواصلية، وسعى لتحديد خصائص علاقات التوافق بين صيغ نظام لساني والوظائف المشفَّرة بهذه الصيغ. إذ يفترض أن اكتساب اللّغة يقوم على مبادئ عامة في التطور المعرفي، كما أنّ نشاط اللّغة يمكنه أن يشكِّل الأنظمة اللّسانية. ويشدّد الوظيفيون الجدد على دور العلاقات والمقولات الدلالية في اكتساب بنيات تركيبية، ويناقشون إشكالية الكليات (اللّسانية والمعرفية) والتغير اللّساني من منظور مُنمذِج، ويتساءلون عن طبيعة الروابط بين الخطاطات المعرفية الكلية وتنوع وسائل التعبير: مفهوم "النحوية" يحتل موقعًا مركزيًّا. وكما يشير إلى ذلك جاك فرونسوا في نهاية مقاله، فنظريات الوظيفيين الجدد تقترح سبلًا للتفكير في أسئلة أساسية من أجل لسانيات معرفية تحمل هاجس التفكير في الصلات بين اللّغة والذهن والدماغ: كالسؤال عن "المتغير بين الأفراد" في معالجة اللّغة، وسؤال بروز التعدد الجيني للقدرة اللّغوية.

الخيار "الدينامي" الذي يتقاسمه تيار الأنحاء المعرفية وتيار الوظيفيين الجدد يفسر وجودهما في المرحلة مع بعض الدراسات الدياكرونية (المرتبطة في العمق بالمقاربات التصنيفية)، وهو ما توضحه مشاركة ألان بيروب (Alain Peyraube). حيث يعرض بالتفصيل مثالين خاصين، مقترضين من تاريخ اللّسان الصيني- تطور البنيات الظرفية وضمائر الاستفهام- هذا المقال يتيح فهم ما يمكن أن يستفيده تاريخ اللّسانيات من تطور نظريات الأنحاء المعرفية (وتحديدًا من خلال معالجة التعدد الدلالي للاستعارة، أو اللّجوء إلى مفهوم الطراز)، كما يمكن لإدماج البعد الدياكروني والتصنيفي أن يكون إضافة ضرورية في اللّسانيات المعرفية: فهم تطور البنيات اللّسانية أحد شروط تناول طبيعة التغير المفهومي الذي يوضِّح بدوره التنظيم التصوّري الحاضر.

المقالات المجمعة في الجزء الثاني من المؤلف مخصّصة للتفاعلات بين اللّسانيات المعرفية وتخصّصات أخرى من العلوم المعرفية تتناول اللّغة من زاوية مختلفة عن زاوية اللّسانيين: ليس انطلاقًا من دراسات خاصّة لاشتغال الألسن، لكن بوصفها قدرةً عليا لدى النوع البشري، يُفعّلها الأفراد، كامنة في بعض مناطق الدماغ، ويمكنها أن تقدّم مماثَلات على الحاسوب.

مقال جون فرنسوا لوني (Jean-François Le Ny) يقدّم منهجية عالم النفس المشتغل على اللّغة من منظور معرفي. فعلم النفس اللساني، باعتباره فرعًا من علم النفس المعرفي، تشكل عبر محطات تاريخية وعبَرته تيارات نظرية كبرى ومختلفة، لكن ما يؤسس هذا التخصّص "الفرعي" هو المكانة المركزية التي يمنحها للتجريب للإجابة عن سؤال الأسس المعرفية للّغة في ذهن المتكلّمين. وهدفه في الواقع هو تحديد "الهندسة الوظيفية" المتحكمة في اللّغة، في ارتباط بدراسة التمثلات الذهنية (التي تجعل وجود اللّغة ممكنًا) والسيرورات الذهنية (التي تعالج اللّغة). هناك تقنيات متنوعة وطرائق تجريبية موظفة لدراسة هذه الأسئلة: سواء تعلق الأمر بتجميع المعطيات حول كفايات لسانية موضوع تساؤل صريح، أو باستثمار مباشر للأنشطة الداخلية المضمرة (مثل ظاهرة الإشعال) بحساب زمن الإجابة لإنجاز مَهمَّة لسانية. إنّ الوضع الوسيط لعلم النفس في الاشتغال البين-تخصّصي مع علم الأعصاب البيولوجي واللّسانيات يظهر هنا بوضوح: لمحاولة فهم السيرورة العصبية البيولوجية المنتَجة في الدماغ (تنشيطها وانتشارها في إعدادات العصبونات خلال الإشعال) تؤثر في "التمثيلات الذهنية" المحدَّدة تبعًا لدلالات لسانية، عالم النفس يلاحظ ويقيس مؤشرًا غير مباشر، أي زمن الإجابة. فالمجالات الفرعية لعلم النفس اللّساني عديدة (اكتساب اللّغة، وإنتاج اللّغة، واضطرابات اللّغة، إلخ)، غير أنّ مشكل فهم اللّغة هو ما يخصِّص له جون فرونسوا لوني الجزء الأخير من مقاله. وإذا كان فهم ملفوظ يعني تشكيل معنى، فهذا الاشتغال المعرفي يتكئ على مجموعة سيرورات آلية ولاواعية، تحصل في ذاكرة العمل وتستدعي سلسة تبادلات بين الإدراك والذاكرة بعيدة المدى (حيث يُفترض أنّ دلالات الكلمات مخزّنة في "المعجم الذهني"). وبالنسبة للمتشبثين بمقاربات "الارتباط التفاعلي" الأكثر انتشارًا اليوم، فبناء المعنى يتم بربط معلومات دلالية مركبة ومتنوعة وتجميعها (معلومات آتية من معارف معجمية، ومن معطيات نحوية، ومعلومات محسوبة بالاستدلال، ومعلومات خارج- لسانية تقدّمها وضعيات التلفظ).

مقال جون لوك نيسبولوس (Jean-Luc Nespoulous) يعرض فيه تأملات لمتخصّص في علم الأعصاب اللّساني، يتساءل عن البنيات العصبية أو الشبكات العصبية المعبأة خلال المعالجة المعرفية لمكون من "الهندسة الوظيفية للّغة" في نشاط لغوي معين؛ زاويته في هذه المقاربة الخاصة لإشكالية "الهندسة العصبية" هي الخلل الوظيفي الملاحظ في المرض اللّغوي. فعند المصابين بالحبسة، يُحدِث التلف الدماغي اضطرابات انتقائية، تحتاج ملاحظتُها مقاربةً تهتم بالمكونات الفرعية (القوالب) المشكِّلة للقدرة اللّغوية، والتي تتفاعل باستمرار في اشتغالها اللّغوي العادي ويصعب فهمها بكيفية معزولة. فهناك ثلاثة أنماط كبرى من الظواهر المصحوبة بأعراض مرضية مخصّصة بالبحث في الحبسة: "التفكيك المزدوج"، "والتفكيكات البسيطة"، و"التجميعات". النمط الأول يخصّ الحالة التي نجد فيها لدى الفرد مكونًا "أ" (مثلا معالجة الأسماء) مضطربًا ومكونًا "ب" (مثلا معالجة الأفعال) مَصونًا، ونجد لدى فرد آخر "أ" مصونًا و"ب" مضطربًا. فهذه الحالة ذات أولوية لجعل "أ" و"ب" مستقلين، ولمواجهة أطروحة "القولبة"؛ على الأقل متغير إنجازات الفرد نفسه تبعًا للمَهمَّة (مثلا التسمية أو الخطاب المتواصل)، وخاصة النقص في اللّمسة الأخيرة في العُدَد اللّسانية الموظَّفة عامة (مثلا أسماء الأشياء وأفعال الحركة) التي لا تسمح بتشكيل خلاصة نهائية حول الطبيعة – التركيبية أو المعجمية الدلالية- الدقيقة للمكوِّن الموظف. ويتيح النمط الثاني (معالجة الظواهر اللّسانية الفرعية أو مَهمَّة "أ" مضطربة ومكوّن فرعي أو مَهمَّة "ب" مصونة، لكن دون تفكيك معكوس مختبَر) التسليمَ ليس فقط بوجود قوالب مستقلة، بل بدرجات تركيب مرتبطة بداخل القالب أو بتفاعل المهمّات. وبخصوص النمط الثالث الذي يهمُّ تجمُّع عدد من الأعراض المرضية، المرتبطة بداخل اللّغة أو غير المرتبطة بها (مثلا الحبْسة وعدم تحديد موجهات الفضاء، أو الحبسة واللاأداتية)، يتساءل سؤالًا مهما لمعرفة هل يتعلّق الأمر بأنظمة معرفية عديدة منفصلة أو بنظام تمثيلي واحد عميق ومشترك بين مجالات مختلفة. فقد تجدّد إشكال تحديد "منطقة اللّغة" في الدماغ خلال العشرين سنة الأخيرة: النشاط اللّساني يَظْهَر موزعًا على نطاق واسع، ليس فقط في الفصّ الأيسر (بلا شكّ مكان النحو ومعالجة المظاهر الصورية للّغة)، ولكن أيضًا في الفصّ الأيمن (المعبأ لمعالجة المظاهر الأكثر تفصيلًا، ومنها التداولية). وفتح جون لوك نسبولوس،

في ختام مقاله، مسارات جديدة ومتنوعة للبحث التي يجب أن ينفتح عليها الآن علم الأعصاب النفسي اللّساني، مثل ملاحظة تدبير عناصر المعجم الذهني في السياق (لا معزولة)، ودراسة الاستراتيجيات اللّغوية الملطفة للمصابين بالتلف الدماغي (وأيضا الأفراد الأصحاء في وضعية صعبة)، وأخذ المتغيرات بين الأفراد، وبين المهمّات وداخل المهمَّة الواحدة، بعين الاعتبار.

وفي النهاية، يقترح مقال جيرار صباح (Gérard Sabah) أفقًا للإشكالات المطروحة على المتخصصين في الذكاء الاصطناعي في معالجة اللّغة آليا. فبعد التفاؤل الذي طبع بدايات الذكاء الاصطناعي في سنوت الخمسينات، والأمل في قدرة برامج الحاسوب على محاكاة كلّ مظاهر الذكاء البشري (وخصوصًا نشاط اللّغة)، مستعينًا في ذلك بالنظرية المعلوماتية والأنظمة الأولى التي عالجت النصوص بكلمات مِفتاحية، فالسؤال طُرح سريعًا حول معرفة كيف يمكن تمثيل مختلف أنماط المعارف(لسانية وخارج–لسانية) الضرورية لمعالجة اللّغة. وإذا كانت البرامج الصورية، في صيغها العديدة، قد أنتجت أسسًا لمعالجة التركيب، فالإحساس بالحاجة لنماذج دلالية وخِطابية فرض بشكل سريع؛ وفي هذا الصدد، فتنوع المصادر اللّسانية المغذية للمعالجات الآلية ولا تجانسها يستحقان الإشارة إليهما. إنّ ضرورة بناء أنظمة متينة وصريحة كليا تفرض أنماطًا من الإكراهات، مجهولة لدى اللّسانيين المنظرين باستمرار، والمنحى الحديث نحو معالجة متون كبيرة وجّه الأعمال للبحث الاستكشافي الفعال. ومن ناحية أخرى، فإنجاز أنظمة تواصل إنسان–آلة باللّغة الطبيعية يفرض على المصمّمين أخذ بعين الاعتبار ليس فقط كل المكونات اللّسانية للرسالة، ولكن أيضًا السياق المعرفي للإنسان المتحاور مع الآلة (انتظاراته، وتأويلاته المفضَّلة، واستدلالاته، إلخ). ووفق هذا المنظور، فسؤال هندسة أنظمة أشكال التعاون لمختلف أنماط المعارف يشكّل أهمية كبرى. وإجمالًا، فالبراديغم الرمزي المشكِّل للمعرفية، والتماثلات الذهنية وتمثيلات الذكاء الاصطناعي، تواجههما أسئلة في مختلف الإنجازات الحديثة (أنظمة متعدّدة العوامل، وذكاء موزع، وأنظمة هجينة رمزية– ارتباطية، إلخ).

ونأمل في ختام هذا المسار أن يدرك القارئ كيف أنّ الموقع الريادي الذي تحتله اللّسانيات تاريخيًّا (في علاقة بعلم النفس والذكاء الاصطناعي) في حضن العلوم المعرفية الحديثة أتاح لها تجديد إشكالاتها النظرية بعمق، عبر السنوات، والانخراط في تعاون مثمر بين التخصّصات بهدف استثمار اشتغال اللّغة والألسن في الذهن والدماغ البشريين.

الهوامش:

[1] المقال للباحثة Catherine FUCHS وعنوانه الأصلي هو "من أجل التقديم للّسانيات المعرفيّة" (Pour introduire à la linguistique cognitive). وهو مقدّمة لكتاب بعنوان "اللّسانيات المعرفية" (la linguistique cognitive)، صدر باللغة الفرنسية عام 2004 عن: Editions ophrys, Editions de la Maison des sciences de l’homme. والمؤلف خصّص لتقديم اللّسانيات المعرفية وعرض إشكالاتها وبراديغماتها النظرية (في اختلاف عن اللّسانيات العامة). أما عن صاحبة المقال، فهي لسانية فرنسية، ولدت عام 1946 بباريس، وزوجة النحوي بيير لوغوفيك (Pierre Le Goffic)، وتلميذة اللّساني أنطوان كيليولي (Antoine Culioli)، حاصلة على دكتوراه في اللّسانيات من جامعة السربون (1971)، ودكتوراه في الآداب من جامعة Paris-Didreot (1980). لها العديد من المنشورات العلمية، وهي أيضًا مديرة المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا، وحاصلة منه على ميدالية فضية، ومديرة لمختبر اللّسانيات، ومساهمة في تحرير «Encyclopædia Universalis».